

سيمياء الشخصيات السردية في قصة "المحاكمة" لعلّي زغينة "

الدكتورة : فطومة لحمادي/ جامعة تبسة

الملخص:

تروم هذه الدراسة معالجة مدى نجاعة المقاربة السيميائية في تحليل النصوص الإبداعية بعامة، والسردية بخاصة، وذلك من خلال فتح مجمل الأنظمة العلامية التي يبنى عليها النص الإبداعي، ومحاولة إعادة صياغة دواله ومدلولاته.

وقد توصلت الباحثة إلى نتائج أبرزها أن المنهج السيميائي يمتاز بنجاعة تحليلية وكفاءة تشريحية، و بخاصة في النصوص السردية؛ لما تتضمنه من مكونات سردية فاعلة تؤدي وظائف متعددة، حيث تعتبر الشخصية من أهم هذه المكونات لما تضيفه على الأحداث والمكان والزمان من حركية، ولما تقوم به من وظائف مختلفة لا تكتمل إلا باكتمال النص، إنها بحق نبض النص وأساس وجوده.

Résumé :

Cette étude tourne autour de l'efficacité de l'approche sémiologique dans l'analyse des textes créatifs en général et en particulier les textes narratifs, et ce à partir des systèmes des signes.

dont les textes créatifs sont construits en essayant de reformuler le signifiant et les significations.

La doctorante est terminée à des résultats dont le plus important et que la méthode sémiologique est caractérisée par l'efficacité et la performance analytique, surtout dans les textes narratifs qui comprennent des éléments narratifs efficaces jouant des fonctions multiples parce que la personnalité est considérée comme l'actant principale dans les séquences événementielles à savoir le cadre spatio-temporel.

مقدمة:

تحتل السيميائية، في المشهد الفكري المعاصر، مكانة مميزة، فهي نشاط معرفي بالغ الخصوصية من حيث أصوله وامتداداته، ومن حيث مردوديته وأساليبه التحليلية. إنها علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية، كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا (ومن هذه الحقول استمدت السيميائيات أغلب مفاهيمها وطرق تحليلها)، كما أن موضوعها غير محدد في مجال بعينه، فهي تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني: إنها أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءاً من الانفعالات البسيطة ومروراً بالطقوس الاجتماعية وانتهاءً بالأنساق الإيديولوجية الكبرى.

وقد شكلت السيميائية منذ الخمسينات من القرن الماضي في المجال الأدبي بخاصة، تياراً فكرياً أثرى الآراء النقدية المعاصرة، وأمدّها بأشكال جديدة بغية فهم وتأويل النص الأدبي في جميع أشكاله باعتباره يتشكل من علامات لغوية وغير لغوية تفكيكا وتركيبا. ومما لاشك فيه، أن الوقوف عند خلفيات الاتجاه السيميائي في أسسه ومكوناته، يعتبر شرطا أساسيا للتعامل مع الخطاب السيميائي العربي في الإطار الصحيح. إذ بدون النظر في معطيات هذا الاتجاه وظروف إنتاجه يظل عنصر الفهم والاستيعاب متعذرا. فمنذ محاولات فلاديمير بروب (1928)، إلى المحاولات الأكثر حداثة للسيميوطيقا السردية، اعتبر هذا الحقل من أنشط الحقول وأخصبها من حيث العطاء: (بارت، تودوروف، كريستيفا، امبرطو إيكو، ريفاتير، ميترز، كوكي، كورتيس، راستي وكريماس... إلخ) فمادامت الجملة قابلة للوصف من الناحية المعجمية والتركيبية والدلالية، ومادام كل مستوى من هذه المستويات لا يمكنه أن يؤسس المعنى بمفرده، بل في علاقته بباقي المستويات الأخرى، فإن هذا المبدأ قابل للتطبيق كذلك على مختلف أشكال النصوص والخطابات؛ ذلك أن النص أو الخطاب يحتوي "سيميائيا" على نفس المستويات، "لقد كانت هذه المبادئ (وغيرها) هي المنطلق الرئيسي نحو تأسيس لغة واصفة تمتد بجذورها في اللسانيات لكنها تسير نحو الانفصال عنها. إنها لغة واصفة تستند في تشكيلها إلى الدرس اللساني، ولكنها تستمد مردوديتها التحليلية من النص وليس من الجملة..."⁽¹⁾

فقد استخلص "بروب"، من مائة حكاية شعبية روسية، ما سماه "النموذج الوظائفى"؛ أي البنية الشكلية الوحيدة، التي يتفرع منها عدد لا نهائي من الحكايات، وإن كانت مختلفة التراكيب والأشكال. أين تتبلور الوظيفة عنده في فعل الشخصية، من وجهة دلالاته في سير الحكاية.

ومن هذا المنطلق تقوم السيميائية السردية على دراسة الشخصيات، بالمفهوم النفسي والتاريخي، و تبحث عن وسائل أخرى للرصد والحديث عن مشتركين و فاعلين، و قد تلجأ إلى استخدام مقولات سيميولوجية، مثل المرسل، و

المرسل إليه، و المعاون، والمضاد، و المنتفع، و العائق، و تحلل مراتبهم في بنية القصة، فضلا عن دراسة البنية السردية والإطار الزماني والمكاني للقصة.

ونظرا لما امتاز به المنهج السيميائي، عند كثير من الدارسين والباحثين، من نجاعة تحليلية وكفاءة تشريحية في شتى التخصصات والمعارف الإنسانية، فإنه أضحت منهجا، وتصورا، ونظرية، وعلم لا يمكن الاستغناء عنه في جميع مجالات الحياة.

المشكلة المحورية للدراسة:

كثيرا ما يطرح الدارس أسئلة متنوعة تتعلق بالمنهج السيميائي، من بينها: هل يعد المنهج السيميائي دراسة للمعاني، أم أنه دراسة شكلانية للمضمون؟ وإلى أي مدى حقق البحث السيميائي نجاعته وفعاليته في مقاربة النصوص وتحليلها لاسيما الأدبية منها، وبخاصة السردية؟ وما دلالات ووظائف الشخصيات السردية؟

1- المهاد النظري وجناليوجيا المصطلح:

يقف الدارس حائرا أمام هذا الزخم الهائل من المصطلحات، ك: السيمياء، والسيمولوجيا، والسيميوطيقا، وعلم الدلائل، وعلم الأدلة... وغيرها، الأمر الذي صعب مهمة وضع تعريف لهذا العلم، وهذا ما أكد عليه أحد أقطاب مدرسة باريس السيميائية الذي يعترف بصعوبة الاستقرار على تعريف دقيق لعلم السيمياء، نظرا لتعدد مصطلحاته ومنابعه، من خلال قوله: "إن القارئ العادي، وكذلك الباحث في مجال العلوم الاجتماعية من حقهما أن يتساءلا عن موضوع هذا العلم، إلا أنهما مع ذلك يجب أن يعلما - على الأقل- أن التعريفات والتحديدات، تختلف ولاسيما إذا تعلق الأمر بموضوع علمي لم يمر على ميلاده وقت طويل." (2)

فهناك من الدارسين من يستعمل المصطلح السويسري "السيمولوجيا" *sémiologie*، في حين نجد آخرين يميلون نحو تبني المصطلح البيروني: "السيميوطيقا" *Sémiotique*، لذا كان لزاما علينا تعريف كل مصطلح على حدة، فهذا "دي سوسير يعرف "السيمولوجيا" على أنها ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات لغوية كانت أو غير لغوية، قائلا: "نستطيع أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزءا من علم النفس العام، ونطلق عليه مصطلح علم الدالات *Sémiologie* المشتق من الكلمة الإغريقية دلالة، *Sémion*. وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها أنواع الدلالات والمعاني، ومادام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره، غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية، وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام." (3) وبالتالي فإذا كانت اللسانيات تدرس الأنظمة اللغوية، فإن السيمولوجيا تبحث في العلامات غير اللغوية التي تنشأ في كنف المجتمع فضلا عن العلامات اللغوية.

فاللسانيات هي جزء من السيميولوجيا - حسب سوسير - مادامت السيميولوجيا تدرس جميع الأنظمة كيفما كانت سننها وأنماطها التعبيرية : لغوية أو غير لغوية، المهم أن يتحقق التواصل بوساطة العلامات.

فيما اتجه بيرس وجهة منطقية في تعريفه لمصطلح " السيميوطيقا " الذي يحدد مجاله بقوله : " إنه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء - رياضيات كانت، أو أخلاق، أو ميتافيزيقا، أو جاذبية، أو ديناميكا حرارية، أو بصريات، أو كيمياء، أو تشريحا مقارنا، أو فلكا، أو علم نفس، أو علم صوت، أو اقتصاد، أو تاريخ علوم، أو ويستنا (ضرب من لعب الورق)، أو رجلا ونساء، أو خمرا، أو علم مقاييس دون أن تكون هذه الدراسة سيميائية. " (4)

أي أنها عبارة عن دراسة شكلانية للمضمون، تمر عبر الشكل لمساءلة الدوال من أجل تحقيق معرفة دقيقة بالمعنى، وهذا يعني أن المضمون يتكون - هو الآخر - من شكل ومضمون؛ لأن الباحث في ميدان السيميائيات لا تهتمه المعاني التي يتضمنها الشكل، بقدر ما تهتمه الكيفية التي قيل بها هذا المضمون، ومن ثمة فإن لهذا المضمون شكلا. وقد ظل الاسمان جنبا إلى جنب إلى أن اتحدا تحت اسم السيميوطيقا بقرار اتخذته " الجمعية العالمية للسيميوطيقا " التي انعقدت في باريس سنة 1969م.

ونخلص مما سبق، أن السميولوجيا والسيميوطيقا كلمتان مترادفتان مهما كان بينهما من اختلافات دلالية دقيقة، فالسيميولوجيا تصور نظري بينما السيميوطيقا إجراء تحليلي وتطبيقي، وبالتالي يمكن القول بأن السيميوطيقا هي علم ونظرية عامة ومنهج نقدي تحليلي وتطبيقي.

أما في العالم العربي فقد تضاربت الاتجاهات حول تسمية هذا المنهج؛ فمن النقاد من يطلق عليه اسم السيمياء، ومنهم من يطلق عليه السميولوجيا، ومنهم من يطلق السيميوطيقا.

فهذا صلاح فضل يرى أنه ينبغي علينا إطلاق الاسم الغربي على هذا المنهج، وهو السميولوجيا (semiology) ؛ لأن النقل أولى من الاشتقاق في استحداث الأسماء الجديدة إذا كان الاشتقاق يؤدي إلى الخلط؛ فهو يرى أن السيميائية شيء يتصل بالفراسة، وتوهم الوجوه بالذات أو يربطها بالسيمياء، وهي العلم الذي اقترن في مراتب المعارف العربية بالسحر والكيمياء بمفهومها الأسطوري في العصور الوسطى على أن قرب النطق بين الكلمتين يجعلنا أقرب إلى قبول المصطلح الأجنبي دون أن ينفر منه ذوق المستمع العربي. " (5)، ويرى الدكتور بسام قطوس أن نستخدم مصطلح السيمياء؛ لأن أصله عربي، ففي اللسان نجد سومة، السيمة. (6)

بينما اتفق أغلب النقاد المغاربة على تسمية هذا المصطلح باسم السيمياء، وذلك من باب التأصيل المعجمي اللغوي لهذا المنهج النقدي الوافد من الغرب، فقد ورد جذر " وسم " في القرآن الكريم في مواضع عدة، منها قوله تعالى: (تَعْرِفُهُمْ

بِسِيمَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحَافًا (البقرة/77)، وفي قوله أيضا: (سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح/29)، وهو بمعنى علامة.

2- الجذور الفكرية والفلسفية للسيمياء:

على الرغم من أن صياغة حدود السيميائية النظرية وتحديد مجالاتها لم تبدأ إلا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإننا لا نعدم وجود أفكار سيميائية متناثرة في التراث الإنساني بشقيه الغربي والعربي؛ فقد حفلت كتب الأقدمين بإشارات تخص العلامة ومكوناتها وطرق إنتاجها وتلقيها في محاولة لفهم أسرار الدلالات التي ينتجها الإنسان في تفاعله مع محيطه. بل يمكن القول إن البدايات الأولى للسميائيات، جاءت استجابةً للرغبة الملحة في الإمساك بوحدة التجربة، عبر الكشف عن انسجامها الداخلي غير المرئي من خلال الوجه المتحقق. فما يمثل أمام الحواس شيء متنافر ومتداخل ولا نظام له ولا هوية، ووحدتها القواعد الضمنية التي تتحكم في وجوده وتلقيه هي التي تمكن الذات المدركة من التعرف عليه والإمساك بمنطقه. إن البحث عن هذا الانسجام هو الذي قاد الإنسان إلى استخراج مجموعة من المبادئ يمكن الاستناد إليها من أجل إنتاج كل المفاهيم، أي الانتقال من البعد المادي للعالم الخارجي إلى وجهه المجرد.

من هذا المنطلق يعود تاريخ السيميائيات إلى ألفي سنة مضت. على حد قول إيكو- وهو يتكلم عن السيميائيات القديمة على النحو التالي: " إن الرواقين (STOCIENS) هم أول من قال بأن للعلامة signs دالا ومدلولاً، وقد ارتكزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى، وعندما أقول بدراسة العلامة، فإني أقصد كل أنواع العلامات وكل أنواع السيميائيات؛ أي ليس العلامة اللغوية فقط، وإنما أيضاً العلامة المنتشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية".⁽⁷⁾ ومع الرواقين ظهر لأول مرة في الحضارة الإغريقية أولئك الذين لا يتكلمون اليونانية كلغة أصلية وهؤلاء - حسب إيكو- اكتشفوا أن الاختلاف في أصوات اللغات وحروفها؛ أي شكلها الخارجي الذي يدعى الدال، ينبغي ألا يخدعنا، ف وراء هذه الاختلافات الشكلية الظاهرية بين اللغات البشرية، توجد مرجعيات ومدلولات متماثلة تقريبا. ويصل إيكو إلى أن هؤلاء البرابرة قد سبقوا " دي سوسير" في اكتشاف الفرق بين الدال والمدلول.⁽⁸⁾

وضمن التراث المسيحي يقدم لنا القديس الجزائري " أوغسطين " تصورا تلعب فيه النظرة اللاهوتية للكون الدور الأساس، فهو أول من سعى " إلى بلورة نظرية عامة للعلامات بما فيها العلامة اللسانية سواء ما كتبه في " الثالث " و "مبادئ الجدل أو الجدل" أوفي مؤلفه الشهير " العقيدة المسيحية "، بل إنه طعم الفلسفة المسيحية ذات التوجه اللاهوتي بالتحليل السيميائي الذي يأخذ طابعا براغماتيا يصبح معه الكلام والنصوص المقدسة مصدرا ثريا لنقل المعرفة الحقة المتمثلة أساسا في حقيقة الدين، وتاليا إثبات حقيقة الله.⁽⁹⁾

وهذه القضايا هي ذاتها التي ناقشها الفكر اللغوي العربي بشكل مباشر أو غير مباشر، فقد شاع عند اللغويين والأصوليين والفلاسفة وفقهاء اللغة العرب أن الأشياء متعددة الوجود، فهي موجودة في الأعيان وموجودة في الأذهان وموجودة

في اللسان، وكل وجود له آلياته وطبيعته الخاصة. فالأول دال على المرجع، وهو ما يحدد الوجود الموضوعي للشيء، ويشير الثاني إلى المدلول؛ أي المفاهيم، أما الوجود الثالث فيحيل إلى الدال، وهو أدواتنا الأولى في التعرف على العالم الموجود خارج الذات المدركة.⁽¹⁰⁾ أما في القرن السابع عشر فقد تشبعت فيها العلامات والإشارات مع المفكرين الألمان والإنجليز .

ولم يتحدد التاريخ الحقيقي للسميائيات، كما أشرنا إليه سابقا، إلا بظهور علمين من أعلام الفكر الإنساني الحديث: سوسير (1857-1913)، وبيرس (1839-1914) اللذين بشرا بميلاد السميائيات الحديثة التي تعددت فيما بعد اتجاهاتها بتنوع مشاربها. فظهرت السمياء السردية على يد فلاديمير بروب الذي يعتبر عمله الفتح المبين للدراسات البنوية الدلالية من خلال اهتمامه بالجانب المورفولوجي للشخصية الحكائية مع تعظيم أفعالها ومختلف الوظائف الصادرة عنها، وقد عدت هذه الدراسة ثورة منهجية حقيقية أولت لأول مرة الاهتمام بالشكل على حساب المضمون.

3- السمياء السردية للشخصية:

تعود السميائيات السردية إلى أصول متنوعة تتحدد في اللسانيات البنوية (دي سوسير)، والتوليديّة (نعوم تشومسكي)، والشكلانية الروسية (أعمال فلاديمير بروب)، والبنوية الأنثروبولوجية (كلود ليفي ستراوس)، والدراسات المنطقية (أعمال برونالد)، والفيزياء (كمفهوم التشاكل Isotopie)⁽¹¹⁾، وغيرها. ويعد النص السردي مدار اهتمام السميائيات السردية، الذي يضم مكونات سردية فاعلة تؤدي وظائف متعددة، حيث وضع غريماس في تحليله للنص السردي هيكلًا عامًا يسمى المسار التوليدي "Parcours generatif"، ويشمل ثلاثة مستويات متعاقبة فيما بينها تحكمها بنيتان:

(أ) البنية السميائية السردية، وتتكون من:

أ-1- المستوى المورفولوجي (العميق): ويرصد البعد الدلالي والمنطقي.
أ-2- المستوى التركيبي: ويرصد التحويل من النظام المنطقي إلى نظام التركيب السردية.

(ب) البنية الخطابية، وتتحدد في: مستوى التركيب الخطابي ويتحقق انطلاقًا من الصوغ الخطابي للبنية السميائية السردية.⁽¹²⁾

إذ تعتبر الشخصية من أهم مكونات النص السردي لما تضفيه على الأحداث من حركية وسيطرة في الآن نفسه؛ إنها نبض النص والحركة التي تجري في شرايينه. وقد خضعت التقاليد المرتبطة بالشخصية إلى تحولات، إذ ارتبطت بتوجهات مختلفة، فمن الاهتمام بها كجوهر إلى الاهتمام بها كبنية لغوية⁽¹³⁾، ولا شك أن من بين الأعمال التي اهتمت بدراسة الشخصية وتحديد وظيفتها في السرد ما قام به "فلاديمير بروب" في كتابه "مورفولوجية الحكاية الخرافية"⁽¹⁴⁾ الذي يعد قطعة مع تقليد نقدي كان يراهن على الموضوعات والقيم من أجل

إعطاء وصف شامل للنصوص السردية، وهو أمر رفضه بروب واعتبره تصنيفا فاسدا لا يمكن أن يقدم لنا عناصر ملائمة في التحليل، فالمضامين باختلاف أنواعها، لا يمكن أن تكون منطلقا صلبا لتحليل سردي يمكننا من الكشف عن الوحدة الجوهرية للحكاية العجيبة، وربما كل الحكايات.⁽¹⁵⁾

فدراسة بروب تركز على التحليل الوظيفي للملامح القارة في الحكايات وتنتظم وفق نسق يمثل النموذج الأصلي الذي تعود إليه جميع الحكايات، وقد حصر عدد هذه الوظائف في إحدى وثلاثين وظيفة، وحصر الشخصيات الأساسية في: المعتدي، الواهب، المساعد، الأميرة، البطل، البطل المزيف، الباحث.

ورغم ريادة هذا الطرح إلا أنه قوبل بالرفض وتعرض لجملة من الانتقادات؛ لأنه أهمل بعض العناصر الفاعلة المرتبطة بالشخصية التي تقوم بهذه الوظائف. فالشخصية في نظره لا أهمية لها في البناء الحكائي، لذا كان لا بد من إعادة النظر في القناعات التي أفرزها هذا النموذج، وكان من الضروري أن يعاد الاعتبار للزائل والعرضي - حسب تعبير بروب - أي للشخصية.

فهذه الأخيرة لا يمكن أن تكون عنصرا عرضيا وزائلا لا يقدم ولا يؤخر، كما اعتقد بروب، بل هي على العكس من ذلك العنصر الذي يميز هذا النص عن ذاك، وهذا ما ذهب إليه " غريماس " الذي استند إلى النتائج التي استخلصها بروب، و اقترح وصف تصنيف الشخصيات، ليس بحسب ما هي عليه وإنما بحسب ما تعمله، فوضع بناء على هذا نموذجا عامليا يقوم على ستة عوامل في ثلاث علاقات هي: الرغبة، التواصل، والصراع، و اعتمد في إبراز هذه العوامل على الجانب الدلالي للشخصية، هذا البعد الذي كان غائبا في آراء بروب.⁽¹⁶⁾

وإذا كان النص ذا نظام من الإرشادات اللغوية قبل أي شيء آخر، كما يقول كوكيه، فيجب تحديد طبيعة هذا النظام وتحليل وضع المعنى اللغوي الأولي، ويبدو هذا المعنى الأولي قاعدة انطلاق؛ أي تحليل عند معظم الأخصائيين في السيميائية السردية، وعلى رأسهم غريماس، كما تعد الشخصيات لدى غريماس نقطة انطلاق أساسية من أجل تحديد الأبعاد السيميائية للرواية مستعينا في ذلك بنموذج العامل الذي اشتهر به.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشخصيات، باعتبارها مكونا من مكونات النص السردية، لا تمتلك في التصور الغريمائي وجودا مستقلا يسمح بمقاربتها بعيدا عن المشكلة الدلالية ذاتها، والنموذج العاملي إحدى المقولات الهامة داخل النموذج التحليلي الذي يقدمه غريماس، ويتمظهر العامل عبر عدة ممثلين، وبنية العوامل مزدوجة يتولد عن الأول نوعان من المبارات القصصية: (الكائن...موضوع) (مرسل ... موضوع ...مرسل إليه).

وتعتمد البنية القصصية على مجموعة من الثنائيات غير قابلة في ذاتها لإنتاج دلالة ما إلا إذا دخلت في شبكة من العلاقات تمنحها وجهها إجرائيا .

إن الوجه التركيبي للبنية الدلالية يقتضي طرح سلسلة من العلاقات يَجْمَلُها غريماس في : علاقات ضدية، علاقات تناقضية، علاقات اقتضائية، وهذه العلاقات هي ما يشكل المربع السيميائي أو النموذج التكويني الذي يندرج تحته نموذج العامل.

4- سيمياء الشخصية في قصة المحاكمة:

عرض المدونة: تعد قصة " المحاكمة " للأديب الدكتور علي زغينة من الأعمال القصصية الرائدة التي استطاعت أن تعالج موضوع المحنة الوطنية بلغة قوية وأدوات فنية وجمالية خاصة، مبتعدة عن النقل الفوتغرافي السطحي للأحداث، فالقصة في حقيقتها " تخيل ينطلق من منظور و رؤية، ويحمل منظوراً أو رؤية، فالناس والزمان والمكان في الرواية ليسوا نسخة عما في الواقع الموضوعي، ثمة درجة ما من الانزياح في الرواية بحكم طبيعتها كمتخيل، كفن، كآلية"⁽¹⁷⁾

و بعودتنا إلى أحداث قصة المحاكمة، السالفة الذكر، نجدها تكشف لنا عن وعي أدبي وفني عميق يهدف إلى تشخيص معرفة فنية للراهن. إنها بحق نموذج ناضج لأدب المحنة يدهش القارئ باكتمال إبداعه وتماسك وحداته وقدرته على تجديد وعي الإنسان بالواقع بغية الوصول إلى عمق التجربة بطريقة فنية تجمع عناصر الواقع، وتكشف عن التناقضات الكامنة فيه.

فالأزمة التي عاشتها الجزائر عند زغينة متعددة الأبعاد متنوعة الأسباب، والمسؤولية مشتركة تتحملها جميع أطراف المجتمع الجزائري، لذلك شخص أطرافها في: الشيخ الوقور الذي سعى إلى الذود عن المرأة التي حاول الناس رجمها بالحجارة، فهو يمثل كل مواطن غيور على وطنه لذا يسعى بكل السبل لحمايته من الأعداء (سواء من داخل الوطن أو من خارجه)، وشخص صورة الناس الجهلة الذين يسيئون إلى وطنهم دون أن يدروا؛ لأنهم يرون الظاهر دون أن يغوصوا في الباطن، من خلال تصويره لهم وهم يرمون المرأة المسكينة ويتهمونها بالفسق والفاحشة دون أن يتبينوا حقيقة الأمر. أما المرأة المسكينة المتهمة بالجنون والفسق، فهي رمز الجزائر الوطن الذي وجهت إليه سكاكين لضربه في مقتله، لكن بفضل الله وأبنائه المخلصين تمكن من الخلاص منهم.

أ مستويات وصف الشخصية:

خلفا للمناهج التقليدية ذات الأسس الاجتماعية والنفسية التي وقعت في النظرة الأحادية للشخصية، عندما اهتمت بمضمونها، نجد أن المناهج النصانية انصرفت بطريقة جذرية للاهتمام بهوية الشخصية من خلال وظيفتها وشكلها، ويمكن الحديث في هذا المجال عن نظريات السرد الحديثة التي تتجاذب دراسة الشخصية بوصفها جزءا لا يتجزأ من العملية السردية، وتقع هذه النظريات " في ثلاث مجموعات اعتمادا على كونها تتعامل مع السرد بوصفه متواليه من الأحداث، أو بوصفه خطابا ينتجه سارد، أو بوصفه نتاجا اصطناعيا ينظمه قرائه ويمنحونه معنى." ⁽¹⁸⁾، ويمكن إدراج داخل المجموعة الأولى أعمال كل من:

فلاديمير بروب -Vladimir Propp- و إتيان سوريو -Etienne Souriau- وقريماس A-j Greimas -و فليب هامون....وجميعها تمثل العقدة بمعناها التقليدي.

من هذا المنطلق يعرف "فليب هامون philippe Hamon الشخصية على أنها " مورفيم فارغ يمتلئ بالدلالة شيئاً فشيئاً من أول النص إلى آخره. إذ تعد الشخصية بعداً استراتيجياً يؤسس للبنية السردية جمالياتها، ويمكن الوقوف عند مستويات الشخصية المتمثلة في: السطحية والعميقة، وتحليل وظائفها داخل المتن السردى، وكذا علاقتها بالعناصر الحكائية الأخرى." (19)

فالشخصية إذن هي كائن لغوي فضاؤه الورقة، يتدخل المبدع بشكل كبير في تشكيل شخصياته، إذ يحدد نوعية وعدد الصفات المرتبطة بها، حيث تتحكم في هذا التشكيل مجموعة من المرجعيات الفكرية والجمالية والإيديولوجية. لذا تعد الشخصية نبض النص والحركة التي تجري في شرايينه، وهي الأكثر أهمية والأكثر إثارة للجدل باعتبارها مكوناً سردياً هاماً، لكن مع هذا ما هي إلا سوى كائن ورقي.

والشخصية في قصة المحاكمة (متمنعة) تحدث المفارقة وترغم القارئ على أن يعيش حضورها وغيبائها، وضوحها وضبابيتها. فالسارد يصفها حيناً ويترك للقارئ الفرصة لوصفها في أحيان أخرى.

وأول شخصية تصادفنا هي شخصية السارد" الراوي " الذي يصف الحدث الذي رآه بعينه، في قوله: "رأيتها، كما رآها الناس (...). كنت أحد شهود العيان (...). حضرت الموقف كله من الأول إلى الآخر (...). رأيتها - يأسادة - كانت تصيح، وتستغيث (...). لا تتفك تجري، تنهب عرض الطريق، قد تطاير شعرها مع الريح، وانتفش (...). تنفياً دماً، ولسانها أحمر يتدلل (...). كانت تلهث (...). عيناها جمرتان حمران (...). غاضبة كانت (...). جامحة، جائحة، مائجة، كأنما تساط بألف سوط (...)." (20)

من خلال هذا الكلام تبرز شخصية السارد بوساطة ضمير المتكلم المتصل في الأفعال: "رأيت، كنت، حضرت، ..."، إنه شخص عايش الحدث؛ لأنه أحس به بجميع جوارحه؛ فهو، منذ البداية، يصرح على أن بين يديه قصة سيرويها. وبهذا سيفتح عملية السرد، ويقوم بتثبيت الأفعال في زمان (الخريف) ومكان محددين: إننا أمام نقطة التواصل بين السارد والمسروود له، وهو تواصل لا يمكن أن يتم إلا من خلال وضع المسروود له في الصورة القريبة من القصة من خلال عملية الوصف.

فهو يصف نصاً سردياً يضم بناءه الخاص، لذا فهو ملزم بتقديم مؤشرات تقود المتلقي (القارئ) إلى تلمس طريقه نحو عوالمه الدلالية. فإذا كانت الشخصية إسقاطاً لصورة سلوكية بأبعادها النفسية والاجتماعية والثقافية داخل عالم متخيل، فإن العودة بهذه الصورة إلى منبعها الأول لا يتم إلا من خلال فعل القراءة؛ أي

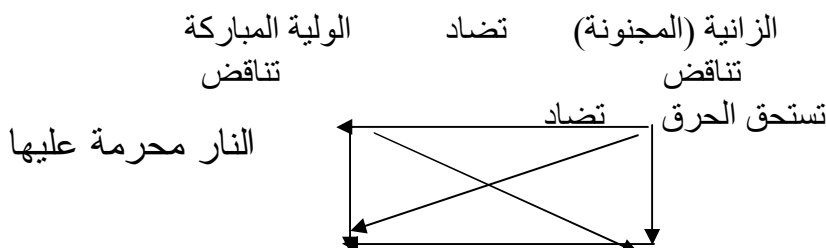
عملية تنظيم العناصر الخالقة لهذه الشخصية داخل نص معين. وتبعا لذلك فإن الشخصية هي نتاج يتداخل فيه التسنين وفك التسنين. لذا يعتبر السارد، وعبر ضمير المتكلم، يبدن بداية الحكى بتوصيف للإطارين الفضائي والزمانى، حيث ستشرع الذوات في مباشرة أنشطتها الحديثة.

وأهم شخصيتين في القصة هما: المرأة (المجنونة) و الشيخ. والملاحظة البارزة هنا هي عدم تسمية الراوي لهذه الشخصيات، وكأنه بهذا العمل أراد أن يشرك القارئ في وضع اسم لها، حسب مرجعيته الفكرية والإيديولوجية، ويقتصر على وصفها ووصف حركاتها وأفعالها وأقوالها. ومن خلال الأوصاف العديدة التي وصف بها السارد المرأة يمكننا أن نجعلها في وصفين رئيسيين هما: المجنونة، الولية المباركة، كما هو مبين من خلال الجدول الآتي:

الدلالة	الأوصاف	الشخصية
المجنونة الولية المباركة	تقوم بأعمال غريبة (تجري، تصيح، شعرها منفوش) النار محرمة عليها، لذا فهي تحمل الخير للناس.	المرأة

شخص وقور حكيم وله القدرة على التحكم في زمام زمام الأمور وتغيير الأحداث المشاهد الذي لا يرى إلا ظاهر الأمور.	مهيب المنظر حيارى، وتصفق	الشيخ الناس
---	-----------------------------	----------------

بتأملنا للجدول فإننا نلمح أن الأوصاف في معظمها معنوية مرتبطة بجوانب دلالية عميقة تحيل عليها شخصيات القصة، وأهم شخصية - كما ذكرنا - شخصية المرأة التي اكتسبت بعدا أسطوريا حاول السارد أن يتفنن في رسم صورة مميزة لها، فهي بمثابة الكائن الهلامي الذي لا يمكن الإمساك به أو حتى السيطرة عليه؛ لأنه يوطر كل شيء ويحتوي كل شيء فهي (الفتاة المجنونة، الولية المباركة، الحاملة للأمل والخير والقيم الإنسانية المفقودة التي تحاول بثها بين الناس المرضى، هي الوطن)، ونستطيع تمثيل هذه الصفات المتناقضة في المربع السيميائي لغريماس:



أما شخصية الشيخ فهي الشخصية الفاعلة أوكل إليها مهمة حماية المرأة من الناس المتربصين بها لرجمها وردمها. فهي - المرأة - تحمل بين طياتها أطياف بعض الشخصيات الدينية والأدبية؛ فتارة تذكرنا بشخصية رابعة العدوية التي تعرضت للرجم بالحجارة من الناس الذين اتهموها بالفسق، ومحاولة الشيخ حمايتها. وتارة أخرى تذكرنا بكل الذين تعرضوا للشدائد والصعاب في سبيل إبلاغ رسائلهم النبيلة، فيما تتخلل القصة بعض الشخصيات الثانوية المساعدة، كالعجوز المتأوهة، والشاب الذي وصفه الشيخ بالخنفوس، وغيرها.

ب- مستوى البنية السردية:

يعد الوقوف عند مستويات وصف الشخصيات ودلالاتها التي تعد بمثابة الأرضية الخصبة التي تهيئ لنا إمكانية تحديد مختلف التحولات الوظيفية، ننتقل إلى مستوى البنية السردية التي يقوم فيها السرد بدوره من خلال جملة من الملفوظات المتتالية التي تؤسس نصيا لمجموعة التصرفات أو الأدوار التي تقوم بإنجازها الشخصيات على مستوى النص.

ونلاحظ في هذا المجال أن هناك حركية في الأدوار إذ تتغير من ملفوظ إلى آخر، ويمكن أن نلخصها في ثلاث علاقات متعدية:

المرأة ← الناس ← الشيخ

ونجد أن الذات الفاعلة هي الشيخ، أما الموضوع فهو استعدادة لحماية المرأة المجنونة، بينما المعارض فيتجسد في الناس الذين يتربصون بها. وبهذا نستنتج أن محور العلاقات في النص يتمثل فيما يلي:

الموقف الابتدائي:

المرأة ← صراع الناس

الشيخ ← صراع الناس

الشيخ ← حماية المرأة

الموقف الوسيط:

الناس ← اختفاء المرأة

المرأة ← جدال الشيخ

الموقف الختامي:

المرأة ← الحلول الشيخ

من خلال الترسيمات السابقة نخلص إلى أن الموضوع المهيمن في القصة هو الصراع بين الخير المتجسد في شخصية المرأة المتهممة بالجنون، وبين الشر المتجسد في شخصيات الناس الجاهلين بحقيقة المرأة. وقد أنهى السارد قصته ببشرى التحولات (علامة خضراء في الأرض وقوس أحمر في السماء)؛ إنه علم الجزائر، الوطن الذي نسيء له دون أن ندري. هي ملحمة الوطن بكل تجلياتها فهي عظمة شامخة شموخ جبالها.

ج- علاقة الشخصية بالزمان والمكان:

يرتبط الإطار الزماني والمكاني ارتباطا مباشرا برؤية الكاتب والفكرة الرئيسة لنصه. فهما (الزمان والمكان) عادة ليسا مجردين، بل ينطويان على دلالات فنية وموضوعية متعددة. إنهما يجسدان المناخ الروائي الذي تنتفس فيه الشخصيات، وبناء على ذلك، فهما يمثلان الوسط الطبيعي لأدوار الشخصيات وصفاتها، وأساليبها في الحياة. وبهذا يتجاوزان وظيفتيهما الدلالية المعروفة إلى فضاء آخر يتسع لبنية القصة، ويؤثر فيها.

ومن هذا المنطلق يعد المكان والزمان عنصرين أساسيين في بناء القصة؛ فمن خلالهما تتحرك الشخصية وتكتسب مشروعيتها ومختلف إحياءاتها، ومن خلال تلاحم هذه العناصر الثلاثة: الزمان والمكان والشخصية يمكن أن نتحدث عن نص قصصي متكامل.

أما عن مكان أحداث قصة المحاكمة، فهو مكان يجسد مفترق الطرق الذي يفصل بين الحاضر والمستقبل؛ بين حاضر كئيب وبين مستقبل يأمله السارد أن يكون أفضل من الحاضر، وقد أتاح السارد لهذا المكان بأن ينطق بما هو سري. إنه مكان شبه أسطوري تجتمع فيه المتناقضات وتتصارع فيه الشخصيات لاختار في الأخير كل شخصية طريقها الذي تسلكه.

وبانتقالنا إلى علاقة الزمن بالشخصية، نجد أن الحركة الزمنية الداخلية في هذه القصة دائرية تجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل. فالشيخ أصبح يعيش غربة زمانية ومكانية في الوقت نفسه. هل يمضي إلى الأمام، أم يعود إلى الوراء؟ لكنه اختار في الأخير المضي قدما نحو الأمام أملا في مستقبل أفضل، بينما اختارت المرأة الانتقال إلى زمان ليس كباقي الأزمنة. إنها اختارت الحلول. أما عن الزمن الخارجي، فهو زمن الخريف بما تحمل اللفظة من معنى؛ لأن في الخريف تنقلب الطبيعة بين الثورة والسكون لتنفض في الأخير رداءها لتستقبل الشتاء.

الخاتمة:

نخلص في الأخير من خلال مقاربتنا السيميائية لقصة المحاكمة "العلي زغينة" إلى أن المنهج السيميائي استطاع أن يكشف حقائق عدة حول طبيعة القصة التي تتميز بأبعادها المجازية والرمزية والتجريدية القائمة على الغموض الفني، والانزياح، والإحياء، والتكنية، والمشابهة. وبالتالي، تنتقل القصة من الواقعية الحسية إلى التجريد الرمزي. أما عن شخصياتها فهي تمتاز بصفات مادية ومعنوية، وتقوم بوظائف وأدوار. وكل هذه السمات تشتغل بناء على ما تقوم به الشخصية من أفعال. فضلا على أنها تمتاز بعمق الدلالة وانفتاحها وتناقضها، فهي تنفعل بعنف؛ لأنها تعالج قضية هامة هي قضية الانتماء، لذا فهي

تحاول أن تستفز الرصيد الثقافي للقارئ ليعيد بناء الشخصيات حسب توجهه وإيديولوجيته، ومع كل قراءة جديدة يولد نص جديد.

الهوامش:

- 1- ينظر: سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تامل، مراكش، المغرب، 1994. ص27.
- 2-J.C.Coquet et autres : Sémiotique : l'école de Paris. Hachette 1982, Paris : P 5
- 3- فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987، ط1، ص88.
- 4-Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov , Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Edition du Seuil, 1972, p11
- 5- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، القاهرة، ط1، 1996، صخ.
- 6-نظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت. (د.ط)، 1965، 325/4.
- 7- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2005، ص77.
- 8- رشيد بن مالك، السيميائية أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص21.
- 9-أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة"المنطق السيميائي وجبر العلامات"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، ص24-25.
- 10-سعيد بن كراد، السيميائيات النشأة والموضوع، ص: 15.
- 11-انظر: فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص11.
- 12-انظر: سعيد نكراد، شخصيات النص السردية " -البناء الثقافي "، منشورات كلية الآداب، مكناس، 1995، ص10.
- 13-فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بين كراد، دار الكلام، الرباط، 1990، ص: 9.
- 14-Vladimir Prop, Morphologie du conte traduction de Marguerite Derrida, Tzvitane Todorov et Claude Kahin, Paris, le seuil, 1970, p : 67
- 15- سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، دار مجدلاوي، الأردن، ط1، 2005، ص: 09.
- 16- لخميداني حميد، بنية النص السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص52.
- 17- نبيل سليمان، الرواية العربية رسوم وقراءات، دار عالم الكتب، ط1، (د.ت)، ص: 13
- 18- والاس مارتن : نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة، ص: 106.
- 19- فيليب هامون، المرجع السابق، ص: 9.
- 20-علي زغينة، المحاكمة، سلسلة الإبداع الأدبي، الجاحظية، الجزائر، ص08.